فنون الأدب الهامشي وأنواعه:

الشعر

تمهيد:

إن الحديث عن موضوع الهامشية في الشعر يدفع بنا إلى استدعاء شعر الصعلكة باعتباره معارضة صريحة وشجاعة للقبيلة وأعرافها. وكل التهم التي وجهت للشاعر الصعلوك تهم صادرة عن القبيلة التي رفضت الخروج عن سلطتها.

- أولا: الصعاليك ورفض سلطة القبيلة:

الصعاليك قوم لم تدجنهم السلطة ولم تترك ملحا في طعامهم. فنجد على سبيل المثال الشنفرى الذي يرفض –انطلاقا من حبه للحرية– مراسيم القبيلة وطقوسها وأمورها. وهو بذلك يرفض الكذب والنفاق، ويفضل أن يسمي الحقائق بأسمائها. والأهم له هو غضب قبيلته (السلطة). لأن همه الوحيد هو أن يكون أديبا حرا. ولهذه الأسباب وغيرها، كان لزاما على الباحثين في شعر الصعلكة أن يردوا له الاعتبار وأن لا ينظروا إليه على أنه خروج عن الطاعة، وتمرد على القبيلة فحسب. بل علينا أن ننظر إليه من زاوية أخرى. وأن نقرأه كما هو لا كما يراه الآخرون. ولهذا نستطيع القول إنهم ظاهرة فريدة في الأدب العربي، تحتاج إلى دراسة جديدة تبعد عنها كل الأكاذيب التاريخية التي لفقتها السلطة لهذا الأدب.

- ثانيا: الصعلكة والانقطاع الفني عن شعر القبيلة:

إن انقطاع الصلة بين الصعاليك وبين قبائلهم من نواح متعددة، اجتماعية واقتصادية وسياسية... أدى إلى انقطاعها فنيا. وهذا الشرخ الذي حدث بينهما، ولد لديهم رؤى مختلفة ومخالفة في كثير من الموضوعات التي جادت بها قرائحهم. وإن غابت بعض الرؤى كما جاءت في القبائل، فإن الصعاليك وضعوا لها معادلا موضوعيا، تردد في شعرهم بحكم المحيط الذي ألفوه، بطبيعته ووحشه وإنسه. وبحكم مغامراتهم وتربصهم بالقبيلة وأملاكها، وقوافل تجارتها. فحضر –بشكل جلي– الوحش الذي اختاروه أهلا بديلا. لأنهم لجأوا إلى أمكنته، وسكنوا كهفه، واعتصموا بأعالي الجبال.

- ثالثا: الصعلكة والاختلاف:

1– التخلي عن المقدمة الطللية: قدس الشاعر الجاهلي المقدمة الطللية، وجعلها تقليدا متعارفا عليه. لكن الشاعر الصعلوك ثار على المقدمة الطللية، وعلى موضوعات القصيدة الجاهلية. فشعر الصعلكة هو شعر مقطوعات، خال من المقدمة الطللية والغزلية.

2– الواقعية: اتسم شعر الصعلكة بالواقعية والصدق. وابتعد عن الخيال والمبالغة في وصف الأشياء. فصور لنا الطبيعة القاسية التي كان يعيش على أرضها، والوحوش البرية التي كان يأنس بها، والمعارك والأهوال التي يقارعها.

3– طغيان الأنا: نفر شعر الصعلكة من ضمير (الهُو)، وصيغة الجمع (النحن) إلى ضمير الأنا... فالصعلوك في آخر المطاف، يبقي على تفرده وفرديته وذاته. وهو ليس ذلك الإنسان الذي تضبطه قوانين الآخر، فينصاع لأوامره ونواهيه، ويُحدَّد بمكان ويُقيّد بزمان. وإنما ينشد حركية الزمان واستمراريته نحو المستقبل. مصيره مرتبط بالطبيعة وليس بالقبيلة. فهو انفصام مكني، وتميز عن الآخر.

المراجع:

- محمد برُّونة: شعر الصعاليك، قراءة في المتن، مجلة إنسانيات، عدد أكتوبر-ديسمبر، ص 65-85، 2009.